كيف يطفأ هذا الظمأ من عناقيد ؟ وهل الظنون بقادرة على أن تعطي يقينا ، أيمكننا أن تسمي هذه الصورة بـــ(الصور المستحيلة) التي لا تخضع لمنطق ، إلا منطق الوجدان ، أن كان للوجدان منطق ، أنها تذكرنا بشاعر الاستحالات العقلية أبو تمام حين مزق الحواجز العقلية ، فشرب من ماء الملام .

لا تسقني ماء الملام فإنني **** صب قد استعذبت ماء بكاني !

وليس غريبا أن يتقدم إليه واحد من أصحاب المحاكمات العقلية : أعطني قليلا من ماء الملام ! وليس غريبا – أيضا- أن يرده برفق ، ويهديه إلى نبع الأدب : القران الكريم " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.."[450]

وتظل هذه الـــ (لولا)، مماثلة في ذهن الشاعر بالنسبة إلى الأمة التي شاء الله أن يكرمها بالإسلام ، فماذا تكون هذه الأمة لولا هدى الله؟

لولا صابها لم يكن كون ولا

ذابت عيون العاشقين توترا [451]

تلك الرياح ... كانت لوقح الخير... وعناقيد الحب ...

وتلك الرياح ... كانت إكسير الفاعلية والتوتر في الحياة .. بكل ما في هذه الحياة من أفكار وأشياء

الكتاتيب القرآنية بتوات (ولاية أدرار)ودورها في احتضان الدرس اللغوي

د . الصديق حاج أحمد،

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أدرار

مقدمة:

لا يمكننا أن نتعرّف على حالة الدرس اللغوي بتوات دون أن نتعرض لموطن ذلك الدرس اللغوي(الكتاتيب)، لكونه يشكل فضاء، ومناخا مناسبا لنشأة ذلك الدرس اللغوي، ونموه، وتطوره.

ما كان للدرس اللغوي، أن يستوي على سوقه، لولا أنه استظل بمظلة القرآن الكريم، ولهذا فقد ارتبط الدرس اللغوي بالقرآن الكريم منذ البداية، وعليه فإن التواتيين اهتموا به اهتماما كبيرا، وأولوه صدرا صالحا من عنايتهم وتثقيفهم، فلا يكاد يخلو قصر من القصور التواتية من هذا الفضاء العلمي، وقد جرى العرف التواتي، وتحكّمت العادة بتوات، وكما هو سائر في باقي حواضر المغرب الإسلامي، ومشارقه، من أن الكتاتيب القرآنية تبنى بمحاذاة المسجد.

---

[450] - سورة الاسراء ، الاية 24

[451] - مصطفى الغماري ، قراءة في اية السيف ، ص 151.

وقد عرّفها أحد الباحثين بقوله:" هي ذلك المكان الذي يتلقي فيه (القندوز)[452] دروسه الأولى، وتربيته الأساسية على يد الطالب (الشيخ)[453].

أما في العرف التواتي، فيطلق على ذلك المكان الذي يؤمه التلاميذ لتعلّم الحروف الهجائية، وحفظ القرآن الكريم بأقربيش[454]، كما قد يصطلح التواتيون على هذا الموقع مصطلح المحضرة[455]، وفي بعض النواحي التواتية، قد يصطلحون عليه مصطلح الجامع.

وبالجملة؛ فهي أول المدارس التي يلتحق بها الصبيان، منذ سن الخامسة، وأحيانا منذ الرّابعة، مهمتها تعليم الصبيان الحروف، والكتابة أولا، وبعد ذلك تحفيظ القرآن الكريم، باستخدام اللوح، والدواة، والقلم، وفق الرسم العثماني من جهة، ورواية ورش من جهة ثانية، باعتبارها الرواية السائدة في المنطقة[456]، كما يعتمد التواتيون الخط المغربي، والذي يتميز عندهم بكتابة الفاء نقطة أسفلها، والقاف نقطة واحدة من الأعلى.

المرحلة التعليمية التمهيدية الأولى للقرآن الكريم:

فالعملية التعليمية الأولى المتمثلة في رسم الحروف الهجائية، وكتابتها تتطلب من التلميذ معرفتها أولا، وتحصيلها ضبطا، وإثباتا[457].

وهناك من الباحثين التواتيين، من قسّم مراحل تعليم الكتابة للصبيان، إلى ثلاثة مراحل:

ــ مرحلة كتابة المعلم للصبي في اللوح بقلم القصب دون الحبر[458]، أو ما يظهر تأثيرها في اللوح، ليتابع ذلك الصبي بالقلم والحبر، حتى يتدرّب على وضع الحروف، وتحسينها.

ــ مرحلة النقل، فإذا أتقن الصبي الحروف، فإن المعلم يكتب له أسفل اللوحة الآيات، ثم يأمره بنقلها.

ــ مرحلة الإملاء، وذلك بعد أن يحسن الصبي الخط، ويختبر الكتابة، يملي عليه الشيخ الآيات، ليكتبها على لوحه، ويشكلها، ثم يقوم المعلم بمراقبتها[459].

---

[452] ــ يقصد به التلميذ.

[453] ــ الكتاتيب القرآنية ــ أحمد الأزرق ــ دار الغرب للنشر والتوزيع ــ وهران ــ الجزائر ــ 2002 ــ ص27.

[454] ــ كلمة زناتية محلية، تعني في العربية الكتّاب.

[455] ــ يختلف مصطلح المحضرة عن مصطلح الكتّاب لدى الشناقطة، إذ أن المحضرة عندهم تمثل أعلى درجات التعليم **(بلاد شنقيط المنارة والرباط ــ الخليل النحوي ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ تونس ــ 1987 ــ ص170)**.

[456] ــ صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة ــ د/ عبد المجيد قدي ــ ص212.

[457] ــ النبذة في تاريخ توات وأعلامها ــ عبد الحميد بكري ــ دار الغرب بوهران ــ ص42.

[458] ــ وتسمى هذه العملية محليا بالترشام.

ومن المظاهر الاحتفالية بالكتاتيب القرآنية التواتية، والتي تعبر وبكل صدق عن احتفاء، واهتمام أهالي توات بدخول الصبي للكتاب، ويتمثل ذلك في إقامة حفل بهيج، يدعى إليه أهالي القصر قاطبة؛ فيحضر أهل الصبي الجديد التمر، واللبن، ويأتي الصبي إلى حضرة الشيخ، وأعيان جماعة القصر، بلباسه الأبيض الجديد، ويعتبرهذا اليوم منعرجا حاسما في حياة الصبي، لكونه قد تخلى عن تمائمه، ولبس عمائمه، وبعدها يخط الشيخ للتلميذ في صدر لوحه قوله تعالى:(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان)، ثم بعد ذلك يتدرج في رسم، وكتابة الحروف الهجائية إلى غاية إتقانها[460].

كما أن الحفاظ من أعيان، ووجهاء القصر، قد يتعاورون على كتابة بعض الحروف للصبي، تبركا بهم، بعد أن يكون الشيخ قد بدأ له بداية.

كما اعتمد أهالي توات قديما طريقة أخرى في تعليم الصبيان للحروف، وذلك بأن يؤتى بطبق مملوء بالرمل، ثم يرسم الشيخ للصبي على ذلك الرمل رسم الحروف، ويقول له: الألف لا ينقط شيئا، والباء نقطة من أسفل، والتاء نقطتين من أعلى[461].

المرحلة التعليمية الثانية للقرآن الكريم :

وتعد هذه المرحلة منعطفا حاسما في تعلم الصبي بالكتاتيب التواتية، إذ فيها ينتقل الصبي من مرحلته التعليمية البدائية، التي خصصت لتعلم رسم الحروف، وهجائها، وضبطها، وتحقيقها قراءة وكتابة، لينتقل إلى مرحلة ثانية يتدرج فيها عبر السور القصار، بداية بالفاتحة عن طريق التلقين[462].

وهكذا يتدرّج التلميذ مع السور القصار صعودا تسلسليا، وعبر مروره، وتدرّجه عبر تلك السور القصار، تقام للتلميذ مظاهر احتفالية تشجيعية، وهذه الوقفات التي تقام فيها تلك المظاهر الاحتفالية تتدرج حسب المراحل التالية[463]:

ــ مرحلة الوصول إلى سورة البينة، وذلك معناه إتمام التلميذ ربع الحزب الأول.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة الأعلى، وذلك معناه إتمام التلميذ الحزب الأول.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة النبأ، وذلك معناه إتمام التلميذ حزبان.

---

(459) ــ الرحلة العلية إلى منطقة توات ــ الشيخ باي بلعالم ــ دار هومة بالجزائر ــ ج1، ص264.

(460) ــ صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة ــ المرجع السابق ــ ص213.

(461) ــ ويعبر عن ذلك في اللهجة المحلية لأهل توات: **(ليف ما ينقط شي، الباء وحدة من تحت ، والتاء ثنتين من فوق...)**.

(462) ــ صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة ــ المرجع السابق ــ ص213.

(463) ــ المرجع نفسه ــ ص215.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة الجن، وذلك معناه إتمام التلميذ ثلاثة أحزاب.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة الملك، وذلك معناه إتمام التلميذ أربعة أحزاب.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة الفتح، وذلك معناه التبرك بهذه السورة.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة يس، وذلك معناه إتمام التلميذ الربع الأول.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة الفرقان، وذلك معناه إتمام التلميذ ثلث القرآن.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة طه، وذلك معناه إتمام التلميذ نصف القرآن.

ــ مرحلة الوصول إلى سورة التوبة، وذلك معناه إتمام التلميذ ثلثي القرآن.

فإذا ما وصل التلميذ إلى ثمن(يستبشرون بعمة من الله)من سورة آل عمران، تقام للتلميذ وليمة عظيمة، تسمى محليا بالسلوك[464]، يدعى لها أهالي القصر، بل قد يصل الأمر أحيانا إلى دعوة بعض الأحباب من خارج القصر، وهذا الحفل البهيج الذي يقام للتلميذ، يعتبر بمثابة تشجيعا، وتحفيزا له على مروره، وإتمامه للقرآن الكريم[465].

ثم يتقدّم التلميذ نحو حضرة الشيخ ليخط له بداية ثمن(يستبشرون بنعمة من الله)، ثم يتعاور على لوحه جميع حفظة القرآن الكريم، فيكتبون له أية لكل واحد منهم، تبركا بهم، وتقدّم للتلميذ في هذا المظهرالاحتفالي بعض الهدايا، والعطايا من لدن الأولياء، والأحباب، وتتمثل هذه الهدايا في قواريط، وحبوب ماء الفقاقير، وبساتين النخيل، تقديرا له على حفظه، واجتهاده لكتاب الله[466].

المرحلة التعليمية الثالثة للقرآن الكريم:

وتبدأ هذه المرحلة التعليمية، بوصول التلميذ إلى ثمن يستبشرون، وإقامة المظاهرالاحتفالية الخاصة بالسلوك، فيكمل التلميذ الصعود التسلسلي حتى يصل إلى نهاية سورة البقرة، ليقفل راجعا على القرآن الكريم نزولا تسلسليا، ضابطا، وحافظا، ومحققا للقراءة، والرسم، والكتابة، حتى يصل إلى سورة الفاتحة، عندها يحصل للتلميذ ما يشبه الإجازة؛ فتقام له مظاهر احتفالية مرة أخرى، وتعتبر هذه الأخيرة هي الأضخم، نظرا لحجم المناسبة، إذا ما قورنت مع سابقاتها السالفة الذكر، فتقام للتلميذ الحافظ الضابط

---

[464] ــ ويطلق عليها في بعض النواحي الجزائرية بالختمة **(دور الكتاتيب القرآنية الحرة في الحفاظ على القرآن واللغة العربيـــة ــ مقال: لعلي أجقوا ــ باتنة ــ الجزائر ــ مجلة آفاق الثقافة والتراث ــ مركز جمعة الماجد ــ الإمارات العربية المتحدة ــ العدد49 ــ 2005 ــ ص19، وما بعدها)**.

[465] ــ الرحلة العلية إلى منطقة توات ــ المرجع السابق ــ ج1 ــ ص264.

[466] ــ صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة ــ المرجع السابق ــ ص216.

وليمة كبرى، بحيث يطوف بالمقبرة، وتهدى له الهدايا، والعطايا كذلك من طرف الأولياء، والأحباب، والجيران، وتسمى هذه التظاهرة بالحفوظ.

ويطبّق التلميذ في هذه المرحلة، نظام الثمن، والربع، في كتابة، وحفظ القرآن على اللوح.

المرحلة التعليمية الرابعة للقرآن الكريم:

ويتعلق الأمر بحلقة القراءة الليلية، حيث يجتمع الشيخ مع تلاميذه في حلقة من كل يوم بعد صلاة المغرب، ويقرأ الشيخ مع تلاميذه بالوقف، من سورة الجمعة إلى آخرالقرآن، حيث دأب الشيوخ على تعويد تلاميذهم هذه الحلقة الليلية؛ لأن جل التلاميذ قد قرأ تلك السور القصار على ألواحهم[467].

وتعتبر الحلقة الليلية من أهم المراحل التعليمية للقرآن الكريم، لكونها تساعد التلاميذ على الحفظ الجيد، وضبط القراءة مع الوقف.

المرحلة التعليمية الخامسة للقرآن الكريم :

وهذه المرحلة التعليمية للقرآن الكريم، تعتبر بمثابة المرحلة التي يمزج فيها التلميذ حفظ القرآن مع مبادئ الدين الأولى، وذلك عن طريق حفظ المتون الصغيرة، في العقيدة، والفقه[468].

العوائد والأعراف المرتبطة بالكتاتيب القرآنية التواتية:

من العوائد، والأعراف المرتبطة بهذه الكتاتيب التي لا يمكننا إغفالها، عادة العرفة، وتتمثل هذه العادة في تخطيط، وتنميق ألواح التلاميذ، وذلك بمناسبة عيدي الفطر، والأضحى، حيث يجتمع التلاميذ أمام البيوت، ويتلون جماعة قوله تعالى:(إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، ثم يقوم أهالي القصر بإهداء البيض، والقمح، والتمر، والنقود للتلاميذ، وهكذا يطوف التلاميذ بأنحاء القصر، ليقدموا حصادهم للشيخ في نهاية ذلك اليوم[469].

---

[467] ــ الرحلة العلية إلى منطقة توات ــ المرجع السابق ــ ج1، ص266.

[468] ــ النبذة في تاريخ توات وأعلامها ــ المرجع السابق ــ ص43.

[469] ــ الرحلة العلية إلى منطقة توات ــ المرجع السابق ــ ج1 ــ ص266.

ومن الأعراف التواتية كذلك المرتبطة بالكتاتيب القرآنية، العطلة الأسبوعية، وتتعلق بمساء الأربعاء، ويوم الخميس كاملا، وصبيحة يوم الجمعة، كما أن هناك عطل سنوية، بمناسبة عيدي الفطر، والأضحى، والمولد النبوي الشريف، وعاشوراء[470].

كما أن هناك عطلة ليلية أسبوعية تمنح للتلاميذ ليلة الأحد.

وهناك عدة عادات تواتية ترتبط بالكتاتيب القرآنية، مثل عادة التحريرة، والتختيم، والموزونة.

[470] ــ صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة ــ المرجع السابق ــ ص216.